

# الجابري وسؤال التربية والتعليم

ذ- حسن المنوزي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مكناس-

## **Résumé :**

La question et/ou la problématique de l'enseignement chez Mohamed Abed Al-Jabri, a constitué le socle d'une réflexion évolutive allant d'un discours issu d'une pratique révolutionnaire optant pour la solution unique et radicale vers un discours culturel, militant, démocratique et innovant.

Et, c'est là un tournant central chez Mohamed Abed Al-Jabri, qui marque le passage d'un enjeu politique comme démarche d'appréhension de la question de l'enseignement au Maroc, vers un enjeu culturel et de culture centralisé sur ladite question...

## **Mots clés :**

Mohamed Abed Al-Jabri, – enseignement - discours – solution unique et radicale - enjeu politique - enjeu culturel – discours militant - discours innovant.

"لقد عايشنا مشاكل التعليم في المغرب خاصة، وفي العالم العربي عامة، منذ الخمسينات من القرن الماضي وكتبنا في هذا دراسات ومؤلفات وعبرت عن أفكارنا بجرأة وأحيانا بحدّة..." الجابري - مواقف عدد 70، ص 61.

محمد عابد الجابري فيلسوف لأنه صاحب مشروع وممتلك لرؤية ناجمة عن تفكير في أسئلة/ إشكالات من بينها مشكل التعليم في بلادنا، فما هي العناصر المؤسسة لرؤيته لهذا المشكل؟ هل سؤال التربية والتعليم سؤال تاريخي؟ أم هو سؤال ثقافي؟ أم هو سؤال سياسي؟ أم هو يجمع هذا كله ليرقى إلى كونه سؤالاً استراتيجياً يتعلق بالمستقبل؟

لننظر لهذه الأسئلة بجهة أخرى: ما موقع الجابري من مسألة التربية والتعليم، هل فكر فيها كمؤرخ؟ أم كمتقن؟ أم كسياسي؟ أم كإيديولوجي؟ أم أنه تحدث عنها من جميع هذه المواقع؟ سؤال آخر وأخير، هل ظلت رؤيته وإضاءته ومواقفه هي هي منذ مطلع السبعينات إلى بداية الألفية الثالثة أم طالتها التعديل والتحول؟

يجد الباحث في فكر الجابري صعوبة في الكتابة عنه مردداً إلى كونه "قام بنفسه بهذا العمل"<sup>(1)</sup>. فكتب شارحاً ومختصراً وملخصاً ومكملاً بلغة بينة ومتناسكة ومحسنة وجذابة إلى حد تجعل قارئه مشدوداً وغافلاً للحظات عما يريد الكتابة فيه وكان المخرج بالنسبة لنا هو الجمع بين مسلكين: مسلك قراءته من داخله باستحضار نصوصه كمقاطع وكدلالات وهو ما سمح لنا بالتفكير معه، ومسلك تحريك نصوصه من خلال أسئلة تمثل زوايا مراقبة وتطبيقات لنصوصه الغنية والكثيرة وهذا ما سمح لنا بالتفكير فيه.

التفكير معه والتفكير فيه هما أساس محاور الجابري في هذا العرض، فلننطلق من السؤال الأول:

### 1- سؤال التاريخ/ السياسة:

يرى الجابري أن "المشاكل أيا كانت لها تاريخ"<sup>(2)</sup>، فالإشكالات لا تتجس من فراغ أو عدم بل من خلال الصيرورة والحركة: إنه العمق التاريخي لأي إشكال، ومن هنا فالعودة للتاريخ تنجز دوماً وظيفة بيداغوجية جد ثمينة تساعدنا على الرؤية الواضحة والفهم الأفضل، ذلك أن البحث عن كيفية النشأة والتطور يعمق رؤيتنا لما هو مطروح، غير أن التاريخ بالنسبة للجابري لا يعني التاريخ التفصيلي والتحقيقي بل التاريخ كعلامات ودلالات وإطارات ونتائج وترتيبات. وهكذا فعندما عرض للتعليم من خلال نصوص تاريخية راجعة لعهد المولى عبد الله والمولى الحسن الأول فلكي يحدد دلالاتها بالنسبة لما

<sup>1</sup> - محمد المصباحي: الجابري والحلم المزدوج بالعقلانية، ضمن كتاب التراث والنهضة، مركز الدراسات الوحدة العربية، طبعة 1 أبريل 2004، ص 179.

<sup>2</sup> - محمد عابد الجابري: أضواء على مشكل التعليم بالمغرب دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 5.

بعدها، وهو أيضا عند ما عرض للتعليم في عهد الحماية من خلال دهاقنة الاستعمار (بول مارتي) و(هاردي) وغيرهما فلكي يبرز الطابع العام والتوجه العام للتعليم في هذه المرحلة التاريخية.

وبما أن الحماية قد طبقت على المغرب، فقد فرضت تصورهما لمنظومة التعليم وهكذا أصبح التعليم بالنسبة للمغاربة في هذه الظرفية مسألة وطنية وأصبحنا أمام تاريخان: إما "تاريخ وطني" وإما "تاريخ ضد وطني"، تاريخ مشدود للهوية وللذات وآخر مشدود للمركزية الأوروبية و"منظار المراقب الأجنبي"<sup>(1)</sup>. وها هنا تبدو العودة للتاريخ ضرورة تفرضها الروح الوطنية، روح الانتماء للهوية.

لا يقتصر العمق التاريخي على التعليم وحده فحسب، بل يصدق أيضا على التربية فهي بدورها مفهوم تاريخي: لها تاريخها ومراحلها بالتالي فإن الاختيار التربوي يتطلب العودة لهذا التاريخ لفهم خلفياتها ووسائلها وأهدافها، فتاريخ التربية يكشف فعلا عن ازدواجيتها، فهناك تربية المحافظة وتربية التغيير، تربية الماضي وتربية الحاضر.

إن استحضار التاريخ كعنصر مكون في رؤية الجابري لمسألة التعليم، ناجم عن ضرورات أربع: ضرورة بيداغوجية (توضيح- فهم...) وضرورة وطنية (هوية- إنتماء) وضرورة براغماتية (تجريب- استفادة...) <sup>(2)</sup> وإلى جانب هذا وذاك هناك ضرورة منهجية عنوانها: التحليل النقدي، ذلك أن تحليل التعليم يتناول "لا الحاضر المباشر وحسب بل وأيضا وبالدرجة الأولى امتدادات هذا الحاضر إلى الماضي من جهة واشترئابه إلى المستقبل من جهة أخرى"<sup>(3)</sup>. فإن كان التاريخ محكمة للعقل، فإن نقد العقل هو أيضا نقد للتاريخ في وحدته واستمراريته وتأويلاته و بهذا المعنى يقوم النقد بدور الكاشف المنير.

هذا بالنسبة للتاريخ، أما بالنسبة للسياسة، فقد بين الجابري ارتباط التعليم في بلادنا بسياسيتين: سياسة الحماية الفرنسية وسياسة الحركة الوطنية، سياسة ما قبل الإستقلال وسياسة ما بعده. ما الهدف من السياسة التعليمية الفرنسية؟

إعتمادا على خطاب دهاقنتها وعلى أسلوبها التربوي فإنها كانت تستهدف "إخضاع النفوس بعد أن تم إخضاع الأبدان"<sup>(4)</sup>. وبالتالي فإنها كانت تعمل على التطويع والتكييف واقتلاع جذور المطالبات والتوترات الاجتماعية، كان الهدف هو "البقاء أسيادا على المستقبل"<sup>(5)</sup> لقد كرست السياسة التعليمية

<sup>1</sup> - محمد عابد الجابري: المغرب المعاصر الخصوصية والهوية والحداثة والتنمية، المركز الثقافي العربي، الطبعة 1، الدار البيضاء، نونبر 1988، ص 10.

<sup>2</sup> - محمد عابد الجابري: مواقف عدد 14، أبريل 2003، ص 98.

<sup>3</sup> - الجابري: المغرب المعاصر، م.س - التقديم.

<sup>4</sup> - الجابري: أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، م.س، ص 18.

<sup>5</sup> - الجابري: التعليم في المغرب العربي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1989، ص 21.

الفرنسية تعليما "لا قوميا ونخبويا وازدواجيا"<sup>(1)</sup> أدى إلى نتائج جد هزيلة بالنسبة للتدريس والحصول على الشواهد، فالسياسة الاستعمارية في مجال التعليم كانت من أجل المشروع الإستعماري لغويا وثقافيا وقيما معتمدة منطق الإجتثاث والتنويم والإنتقاء والإحتواء خدمة لمتطلباتها وحاجياتها. فماذا عن السياسة التعليمية للحركة الوطنية؟

يرصد الجابري وجود ازدواجية في انتلجسيا هذه الحركة، بين من يملك ثقافة غربية ومن يملك ثقافة عربية إسلامية وهي ازدواجية ذابت صراعاتها المحتملة في مطلب واحد هو الإستقلال المبني على إيلاء الأهمية للغة العربية والتاريخ الإسلامي، لقد كان هذا مطلباً وطنياً، وكانت سنة 1957 تجسيدا لهذا التوجه حيث ستعتمد اللجنة الملكية لإصلاح التعليم على المبادئ الأربع: التعليم والتعريب والتوحيد والمغربة.

لقد فرضت جدلية التاريخي والسياسي على الجابري تتبع مسار هذه التوجهات التي شكلت أسس المذهب التعليمي في بلادنا على ضوء المخططات التنموية المتعاقبة بدءا من 1958 إلى 1985 والتي عرفت خلالها هذه المبادئ انعكاسات التقلبات الإقتصادية والتجاذبات السياسية، تارة تتقدم وأخرى تتراجع ليخلص من تحليله لهذه الجدلية واعتمادا على إحصاءات همت نسب التعليم والمغربة خصوصا إلى أن السياسة التعليمية في ما بعد الإستقلال حكمتها "السياسة السياسية"<sup>(2)</sup>، حكمها اليومي وهاجس التخوف والإكراه والضغط مما جعلها تتراوح ما بين الجرأة والإنصياع للمنطق الإقتصادي الناظر للتعليم كعبء ثقليل يلتهم ميزانية الدولة بلا مردودية ولا نفع ولا طائل.

لقد طالت السياسة بمدى جزرها المبادئ الأربعة لتغدو من ثوابت الجدل السياسي بين الحكومة والمعارضة وأصبحنا سياسيا أمام "مآزق" أربعة أو "المستحيلات الأربع"<sup>(3)</sup> فما هو الحل؟ سؤال طرحه الجابري على نفسه وأجاب عنه جوابين:

الأول من موقع المعارضة السياسية الحزبية وهو ما نجده في "رؤية تقديمية..." و"أضواء..." إنه جواب السبعينات ويتمثل في "رفض التوفيق والمصالحة والتعاون والتسكين..." (هذا) مضیعة للوقت وهروب من الواقع وتكريس لأسباب الفشل والضياع" والحل هو "استكمال التحرير وبناء الغد..." وليس هناك من طريق غير الطريق الاشتراكي... "هذه هي المعادلة البسيطة والأبجدية الواضحة التي يفرضها منطق العصر"<sup>(4)</sup>.

<sup>1</sup>- الجابري: أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، م.س، ص من 42 إلى 48.

<sup>2</sup>- الجابري: مواقف عدد 70، م.س، ص 61.

<sup>3</sup>- الجابري: أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، م.س، ص 133-135.

<sup>4</sup>- محمد الجابري: رؤية تقديمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية، دار النشر المغربية، 1977، ص 138-139-196. وينظر أيضا كتاب أضواء... من الصفحة 139 إلى 141.

أما الجواب الثاني فقد طرح حلا آخر عرف طريقه عبر حكومة التناوب لا عبر النضال الثوري بل عبر المشاركة السياسية والنضال الديمقراطي، مما ينم عن تحول جوهري في المسار السياسي للمسألة التعليمية عند الجابري الذي أصبح يدعو إلى "منح قطاع التربية والتعليم أكبر قدر من الإستقلال عن الإعتبارات الحزبية"<sup>(1)</sup> كما أصبح يتحدث عن إستراتيجية التجديد من الداخل فاسحا المجال لمتغيرات الواقع لتهب بنسماتها على أحلام شباب الأمس ناصحا بالتخلي عن خطاب الشكوى والإحباط<sup>(2)</sup>، والتخلي بالواقع ضد الحلم، الواقع الواقعي الذي يعترف بما تحقق وينتقد ما لم يتحقق، وأن ما تحقق من (تحولات)<sup>(3)</sup> سياسيا وثقافيا واجتماعيا يمثل جوانب مشجعة.

الملفت حقا في هذا الموقف هو انتباه الجابري لمحدودية الفعل السياسي- الحزبي في معالجة مسألة التربية والتعليم، ذلك أن السياسة وحدها غير كافية بل لابد من إستراتيجية ثقافية وفكرية، وهذا معناه بالواضح أن رهان التعليم والتنمية لا يمكن أن يحل بالسياسة وحدها بل بالثقافة والتربية، فهل معنى هذا إقرار محدودية السياسي والدعوة إلى عودة المثقف؟ هل معنى هذا دعوة لقران جديد بين السياسة والثقافة؟ وهل استشعر الجابري خطورة الفصل بين التربية والتعليم: التربية من مهام الأسرة والتعليم وظيفة إدارية؟

## 2- سؤال: التربية/ الثقافة:

لا يتحدث الجابري عن التربية من موقع القارئ بل وأيضا من موقع مهني، فقد مارس التعليم ومارس الإشراف التربوي أيضا، لذا فحديثه عن التربية كان بهدف اكتساب رؤية واضحة وتقديمية لموضوع يفرض نفسه على التعليم فكريا وعلميا، فماذا تمثل التربية المؤطرة للممارسة التعليمية؟

يجيبنا الجابري بأن التربية مرتبطة بالواقع وبالتاريخ وبالتالي فحركيتها تعبر عن ارتباطها بالواقع وتعكس متطلباته وتطلعاته المتجهة إما إلى الماضي أو المستقبل، فالتربية تكون محافظة عندما تولي وجهها صوب الماضي كفضيلة وكحل، وتكون التربية معاصرة ومجددة عندما تنظر للمستقبل حاملة ثقافة التغيير مستثمرة للعقل والطاقت.

التربية بالمفهوم التقليدي عائق والتربية بالمفهوم المعاصر تغيير و"استثمار"<sup>(4)</sup> وطني، ومن هنا دعوة الجابري لإعادة الإعتبار للتربية بل ويذهب بعيدا في دعوته للبحث عن نظرية تربوية تناسبنا لتجاوز ما نعيشه من خليط تربوي هجين يحكمه الإستلاب واللامنطق ولتجاوز بيداغوجيا الحماية القائمة

<sup>1</sup> - محمد الجابري: مواقف عدد 14، م.س، ص 98.

<sup>2</sup> - محمد الجابري: ن. م، ص 24 و 85.

<sup>3</sup> - محمد الجابري: ن. م، ص من 10 إلى 25.

<sup>4</sup> - محمد الجابري: مواقف عدد 64، دار النشر المغربية، طبعة 1، 2007، ص 58.

على القمع والتسلط والترهيب، فتصوره للممارسة التعليمية والإشرافية التربوية رافض للتسلط وداعي للمشاركة والانفتاح والتعاون.

إن كانت التربية تقوم على قيم من قبيل الحرية والمشاركة والمسؤولية وغيرها فإن هذا يجعل منها ذات قيم ثقافية الأمر الذي يحسم في ترتيب العلاقة بينهما، فليس هناك انفصال جوهري بين التربية والثقافة إذ "ليس المدرسة وحدها هي التي تصنع المستوى بل يصنعه أيضا الجو الثقافي العام"<sup>(1)</sup>، كما "أن إصلاح التربية والتعليم في القطر العربي والوطن العربي عموما لن يتأتى ولن يؤتي ثماره المرجوة ما لم يندرج ضمن مسلسل إصلاحي شامل"<sup>(2)</sup> تحت عنوان كبير يسمى التنمية البشرية.

المطلوب إذن هو تحقيق نوع من التوازي بين التربية والتعليم والثقافة لتحقيق التنمية وبالتالي تأصيل قيم الحداثة ذلك أن المدرسة تنتج النخب والنخب تنشئ وترعى المدرسة وتوجهها، كما أن النظام الثقافي يتغلغل في جسم المجتمع وفي عقول الأطفال بواسطة المدرسة وفكر النخبة، فهل لدينا مدرسة واحدة؟ وهل لدينا مدرسة وطنية؟

يجيبنا الجابري بالنفي اعتمادا على الإزدواجية والإنشطارية التي تعيشها النخبة: نخبة تراثية وأخرى عصرية لكل منهما عالمه الخاص ورؤيته الخاصة، والتفكير في مدرسة مغربية وطنية ومدرسة عربية واحدة يأتي في أفق تجاوز هذا الإنشطار والتعدد لا في المغرب فحسب بل وأيضا في الوطن العربي، ولكن على أي أساس؟ وكيف؟

يقترح علينا الجابري مقياس "المرجعية الفكرية العامة" للأمة العربية، والمتمثل في "وحدة الثقافة" منظور إليها لا بالمعنى العربي والأنثروبولوجي بل بالمعنى العربي القائم على العلاقة "العضوية اللغوية الإشتقاقية بين كلمة "ثقافة" وكلمة "متقف.." "<sup>(3)</sup>.

فالثقافة في هذا الإطار بمثابة "مقوم من مقومات مفهوم الوطن العربي نفسه"<sup>(4)</sup>، إذ رغم "الاختلاف المتعدد الأبعاد" بين الدول العربية فإن "هناك وحدة أو على الأقل هناك نزوع دائم إلى الوحدة"<sup>(5)</sup> والذي يجد تبريره الكبير في "الثقافة العربية" كمقوم أساسي بل ووحيد، وهكذا أوكل الجابري للثقافة وظيفة تاريخية عظيمة تتمثل في تشكيل مدرسة عربية واحدة تعليميا و"الإرتفاع بالوطن العربي

<sup>1</sup>- محمد الجابري: التعليم في المغرب العربي، م.س، ص 168.

<sup>2</sup>- محمد الجابري: مواقف عدد 14، م.س، ص 33.

<sup>3</sup>- محمد الجابري: المسألة الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، طبعة 1، نوفمبر 1995، ص 18-19.

<sup>4</sup>- محمد الجابري: ن. م، ص 22.

<sup>5</sup>- محمد الجابري: ن. م، ص 23.

من مجرد رقعة جغرافية إلى وعاء للأمة العربية لا تكون إلا به ولا يكون إلا بها"<sup>(1)</sup>. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟

يجيبنا الجابري باعتماد "إستراتيجية التجديد من الداخل" الراضة للإنغلاق والإغتراب معا فالإنغلاق "ينقلب إلى موت بطيء ومحكوم عليه بالإخفاق" والإغتراب "ينطلق من الفراغ أي من اللاهوية"<sup>(2)</sup>.

التجديد من الداخل ضروري أولا لأن العمل من الخارج آل إلى الفشل وضروري ثانيا لتجاوز النظرة السطحية والفلكلورية لثقافتنا كسلعة ذات قيمة "غريبة" و"شاذة"<sup>(3)</sup> ومضحكة، وضروري ثالثا لتفادي وجود هش أميل إلى الفراغ محكوم بمقولة الإضافة إلى غيره وعلاوة على هذا وذاك فإن التجديد من الداخل ضروري لتوطيد قدمنا في الوجود ولتعزيد هويتنا أمام تنين العولمة وجبروت اختراقها الثقافي ولتجاوز وضعية الانشطار في نخبنا ومجتمعاتنا. إن التجديد من الداخل إستراتيجية ثقافية بامتياز على اعتبار أن الأفكار لا تنقل ولا تفرض بالإكراه بل تستنبت وتبيء وتجدد، تحديث الأصل وتأصيل الحديث عملية ثقافية متكاملة اعتمادا على الحوار الثقافي، بل إن الجابري يعتبر التجديد الثقافي و التربوي ضروري للتجديد في ميادين أخرى.

يتضح إذن أن رهان الجابري تمثل في تلازم التربية بالتعليم بالثقافة، ثقافة انتقلت من شعار الثورة إلى الحوار ومن المعارضة الخارجية إلى البناء من الداخل اعتمادا على الحوار والتحليل العقلاني النقدي، فلا يمكن للسياسة أن تكون بديلا للثقافة أو تهيم عليها لأن هذا سيؤدي إلى "الإنحدار في مستوى التعليم وانتشار الأمية، أمية القراءة والكتابة وأمية الفكر والثقافة، واتساع الهوة بين "التقليدي" والعصري"... وأخيرا إلى سيادة القوالب الإيديولوجية الجاهزة التراثية والحداثية معا... لقد سادت السياسة على الثقافة فقتلتها"<sup>(4)</sup>.

وهكذا فإن الجابري استشعر فعلا خطورة السياسة على الثقافة والتربية والتعليم أيضا، السياسية السياسية في توترها وتخندقها وتعصبها وبراعماتيتها الضيقة، فهل معنى هذا أن التعليم ينبغي له أن يطهر كلية من السياسة؟ إن القول بهذا الخيار دعوة للفوضوية والعدمية وجعل التعليم يمشي مكبا على وجهه، فلا بد إذن من إستراتيجية سياسة تعليمية وطنية وديموقراطية وتنموية.

وكما أن السياسة لا يمكنها أن تكون بديلا للثقافة والتعليم فكذلك الإقتصاد لا يمكنه أن يكون بديلا لهما، والجابري صارم أيضا في مواجهته للطرح الاقتصادي الذي ينظر للتربية والتعليم والثقافة

<sup>1</sup> - محمد الجابري: ن. م، ص 62.

<sup>2</sup> - محمد الجابري: ن. م، ص 225.

<sup>3</sup> - محمد الجابري: ن. م، ص 227.

<sup>4</sup> - محمد الجابري: ن. م / ص 233.

بإجحاف كبير وببخس شديد ومن خلال شبكة معايير إحصائية تقيس الثقافة والتعليم بمقاييس كمية فحسب، فهل يمكن حصر الثقافة والتربية والتعليم في نطاق ما هو نافع فقط؟ وهل المنفعة تنحصر فيما هو مادي ومالي ومباشر وأناي لا غير؟ وهل يمكن حقا تحقيق تنمية بشرية بدون الشروط الثقافية والتربوية؟

جواب الجابري واضح وحاسم يتمثل في مشروعه نقد العقل العربي وفي مواقفه ورؤاه والتي جميعها تراهن على الثقافة والفكر والتربية والتعليم دون أن تلغي العوامل الأخرى، ذلك أن "التنمية الحقيقية والأصيلة لا تكون إلا إذا كانت في آن واحد نماء في الإقتصاد ونماء في الفكر ونماء في أسلوب الحياة"<sup>(1)</sup>. بل "إن أبلغ تعريف للتنمية هو أنها" "العلم حين يصبح ثقافة"<sup>(2)</sup>. أي عندما يصبح جماهريا وشعبيا يتمظهر في وعي الناس وطريقة تفكيرهم وأسلوب حياتهم وتعاملهم فيما بينهم، وفي مقابل هذا فإن التخلف سيكون هو انفصال العلم عن الثقافة فيطالها اللاعقل واللانظام وتنعكس على فهم الناس وأسلوب حياتهم.

محتقر للتعليم ذاك الذي ينظر إليه فحسب كمقولة إحصائية لأن معانيه أكبر من ذلك، معاني التجديد والتطوير والتعبئة ونشر المعرفة وتنظيم الفكر وعقلنة السلوك. وبكلمة واحدة فالتعليم "فاعل مؤثر و"محرك" و"أداة تغير"<sup>(3)</sup> و"استثمار". وهكذا يتضح لنا أن الجابري وبعدما صفى الطرح السياسي للتعليم صفى كذلك الطرح الاقتصادي متهما إياه بالجهل لا فحسب بالقيم المعنوية للتعليم بل وأيضا بقيم الإقتصاد والقانون على اعتبار أن الإقتصاد منظومة قيم لا يعتمد فحسب على مال غفل أو قوة فيزيائية طبيعية بل يعتمد وبشكل أكبر على الفكر والثقافة مما يجعلهما شرطان ضروريان للنمو الإقتصادي، ف"الثقافة شرط التنمية ومشروطة بها"<sup>(4)</sup>، هذا بالنسبة للجهل بالإقتصاد أما بالنسبة للجهل بالقانون فمن البين بنفسه أن الحق في التعليم أصبح اليوم "حقا من حقوق الإنسان"<sup>(5)</sup>.

إذا كان الطرح الإقتصادي يتجاهل الثقافة والتعليم ويحتقرهما، وكانت الثقافة والتعليم أساسيان للهوية وشرطان ضروريان للتنمية أفلا يؤول بنا هذا الطرح إلى إضاعة الهوية وصرفها في رأسمال عولمي؟ ثم هل العولمة تنحصر فحسب في كونها "إمبراطورية رأس مال" أم أنها فكر وثقافة؟

لننتقل للسؤال الثالث:

### 3- سؤال الهوية/العولمة:

- <sup>1</sup>- محمد الجابري: رؤية تقديمية، م.س، ص 179.
- <sup>2</sup>- محمد الجابري: المسألة الثقافية، م.س، ص 103.
- <sup>3</sup>- محمد الجابري: مواقف عدد 41 ص 16 .
- <sup>4</sup>- محمد الجابري: مواقف عدد 64، م.س، ص 60.
- <sup>5</sup>- محمد الجابري: ن. م، ص 61، وكذا عدد 14، ص 101.



ليس الهدف هاهنا تفصيل القول في تصور الجابري لمسألة الهوية والعولمة بل الهدف هو استحضارهما في سياق علاقاتهما بالتربية والتعليم والثقافة والأسئلة التي تفرض نفسها ثلاث هي: ما الهوية؟ ما العولمة؟ وأي دور للتربية والتعليم؟

يستشعر الإنسان بقوة إنيته عندما يواجه الغير ويصطدم به، عندئذ يعيش تجربة العودة إلى الذات عقليا وسيكولوجيا وروحيا وهكذا كانت مواجهتنا مع الغرب الإستعماري مدعاة لطرح السؤال: من نحن؟ ومن نكون؟ وماذا نريد؟

لقد قارب الجابري مسألة الهوية من خلال جملة من الأزواج<sup>(1)</sup> نختار منها الآن زوج: العروبة/ الإسلام لمبدئيته ومرجعيته على اعتبار أن الهوية هي ما يوحد بل إنها الوحدة ذاتها: وحدة الثقافة والتراث واللغة وهي أيضا ليست إطارا جامدا وثابتا بل هي كيان "يكون ويصير"<sup>(2)</sup>، يستحضر

الجابري مسألة العروبة/ الإسلام في سياق المجابهة مع الغرب: الإستعمار بالأمس والعولمة اليوم: فالإستعمار بالأمس مثل تجربة قاسية ومؤلمة للمغاربة خططت لتفكيك كيانه وتمزيقه من خلال ما عرف "بالسياسة البربرية"<sup>(3)</sup> كعقيدة إستراتيجية لفرنسا استهدفت "فرنسة البربر"<sup>(4)</sup> وبت روح الشقاق والانفصال بين المغاربة بتجزئتهم إلى "عرب وبربر" و"مسلمين ووثنيين"، وبالتالي فإن الهدف من طرح الظهير البربري سنة 1830 كان هو تقسيم المغرب بعزل المناطق الأمازيغية عن انتشار الثقافة العربية الإسلامية مما يسهل عملية إلحاقهم بالثقافة الفرنسية لغة وحضارة ودينا، ومن هنا يتضح لماذا خلقت فرنسا مدارس فرنسية بالمعلمين بربرية بالتلاميذ.

فعندما يتحدث الجابري إذن عن مسألة الهوية منظورا إليها من زاوية العروبة والإسلام فإنه كمثقف وكمناضل سياسي انخرط بشدة في الحركة الوطنية لا يمكنه إلا أن يستحضر هذا المعطى الذي يجب تذكره دوما: الإستعمار ومصلحته ، هذا هو أصل المشكل ونقيض هذه المصلحة الإستعمارية يستوجب السير في طريق آخر هو طريق العروبة والإسلام باعتبارهما متلازمين في المغرب، فإما أن نكون عربا أولا نكون ، والعروبة بالنسبة للجابري ليست قضية جنس أو عرق بل مسألة ثقافة ولغة، مما جعله يرفع التعريب إلى مستوى "الضرورة الإستراتيجية"<sup>(5)</sup>.

<sup>1</sup> - محمد الجابري: المثقف العربي وإشكالية النهضة، رؤية مستقبلية، ص 121. ضمن أعمال ندوة المثقف العربي دوره وعلاقته بالسلطة والمجتمع - المجلس القومي للثقافة العربية- مايو 1985.

<sup>2</sup> - محمد الجابري: مواقف عدد 14، م.س، ص 91.

<sup>3</sup> - محمد الجابري: المغرب المعاصر، م.س، ص 80.

<sup>4</sup> - حمد الجابري: أضواء...، م.س، ص من 28 إلى 32.

<sup>5</sup> - محمد الجابري: مواقف عدد 14، ص 63.

دافع الجابري بقوة عن العربية والتعريب لاعتبارات ثقافية ودينية وتاريخية وسياسية أيضا ، والتعريب عنده لا يعني الترجمة بقدر ما هو "بعث وتغيير وتجديد"<sup>(1)</sup>، تعريب للمضامين وتعريب للغة التدريس وللحياة العامة فلا مناص من التعريب لأننا نوجه تعليمنا للمغاربة، فإما "أن نجعل تعليمنا عربيا أو نبحت عن بشر آخرين في المغرب"<sup>(2)</sup>.

إن دفاع الجابري القوي عن العربية والتعريب لا يعادله إلا قوة دفاعه عن اعتماد اللغات الأخرى مميزا بين ما يسميه "لغة العلم ولغة التواصل" فلغة العلم عالمية بمفاهيمها وابتكاراتها المطردة والمتسارعة إلى حد وجدناه داعيا إلى تعريب المفاهيم العلمية تحقيقا للمواكبة والتي تدخل في صميم مهام التعليم العالي على الخصوص.

وهكذا يبدو أن الجابري ينظر إلى الهوية نظرة واحدة وموحدة قطريا وقوميا كما لو كانت جوهرًا تنتظم داخله جماع الأعراض الذاتية الخاصة بكل دولة عربية، جوهر يتقوم باللغة والثقافة كمرجعية واحدة والتي إذا ما تم سحبها تلاشت الهوية تماما مشرقا ومغربا.

العروبة والإسلام هذا هو الذي استعصى بالأمس القريب على دهاقنة إستراتيجي الإستعمار والذين عبأوا لتخريبه جملة من الدعوات والأدوات التعليمية والقبلية والعرقية بل وحتى السياسية عنوانها: الفصل والانفصال، ومن هنا كان توجس الجابري الشديد حيال أي دعوة إستراتيجية لأي لغة كانت كبديل للعربية لأن ذلك سوف لن يكون له إلا هدف واحد هو اجتثاث الهوية.

لا يمكننا إلا أن نقدر مخاوف الجابري اتجاه الجدل حول موضوع اللغة: لغة التعليم والتواصل، ونقدر أيضا مخاوفه تجاه وحدة الهوية، ولكن —ومن خلال فكر الجابري نفسه المؤمن بالإنفتاح والتعدد والديموقراطية— والتي يعتبرها "ضرورة وجودية"<sup>(3)</sup>، لا يسعنا سوى التساؤل عن طبيعة وحدة هاته الهوية، هل هي وحدة ثابتة وساكنة وقارة أو وحدة دينامية ومتصلة وحية؟ هل هي وحدة الواحد أم وحدة المتنوع؟

إن إشكال "الوحدة"<sup>(4)</sup> مطروح بقوة في فكر الجابري، ويبدو أنه راوح بين منظورين: الأول بنيوي — شكلاني في تجريده للوحدة الثابتة والساكنة والثاني تاريخي- اجتماعي في تفصيله للتحويلات، ومع ذلك وانطلاقا من مخاوفه السالفة الذكر، يبدو أن الجابري ذهب بعيدا في الإيديولوجيا<sup>(5)</sup> مما يجعلنا نعتقد أنه غلب الدلالة الإيديولوجية على مقتضيات الديمقراطية في بعدها الجيو- ثقافي- اقتصادي.

<sup>1</sup> محمد الجابري: أضواء...، ص 148.

<sup>2</sup> محمد الجابري: مواقف عدد 14، ص 93

<sup>3</sup> محمد الجابري: المسألة الثقافية، م.س، ص 239.

<sup>4</sup> عبد السلام بنعبد العالي: بين البناء والتقويض، ضمن التراث والنهضة، م.س، ص 57- 58.

<sup>5</sup> محمد المصباحي: الجابري والحلم المزدوج بالعقلانية، م.س، ص 184 و 196.

لننتقل الآن إلى مسألة العولمة، مسألة "ما بعد الاستعمار" كما يسميها الجابري متسائلين معه كيف يمكننا الإنخراط في العولمة دون أن نفقد هويتنا؟ عندما ينظر الجابري للعولمة فإنه ينظر إليها في سياقها التاريخي كاستمرار لما سبقها وكنتيجة للتحويلات الإقتصادية والسياسية والتقنية التي شهدتها العالم المعاصر لعل أبرزها انهيار الاتحاد السوفياتي وانحسار إيديولوجيته الشيوعية من جهة وهيمنة إمبراطورية الرأسمال والثورة التواصلية من جهة أخرى مما أدى إلى "انفراد الغرب بقيادة العالم"<sup>(1)</sup> وأصبحت العلاقات السياسية "وحيدة الاتجاه".

لا تنحصر العولمة عند الجابري في قوتها المالية والتقنية الهائلة وما حققته من مكاسب بل وأيضا في كونها حاملة لثقافة الإختراق "كغزو جديد" و"كتخريب للهوية الوطنية وتفتيت للثقافة القومية" لا عبر "إخضاع البدن" بل عبر "إخضاع النفس" "بالسيطرة على الإدراك واختطافه وتوجيهه لصناعة فردية مستسلمة"<sup>(2)</sup> وهكذا اكتملت الصورة السلبية للعولمة عند الجابري كثقافة وكإيديولوجية شبيهها "بتنين ذي رأسين"<sup>(3)</sup> كناية لقوة أسطورية مهيمنة وكاسحة ومفككة خارج الحدود وأمام وضع كهذا سيكون الإنغلاق سلبيا ومميتا مثلما سيكون الإغتراب ضياعا للهوية وهكذا طرح الجابري شعاره: "لا انغلاق ولا اغتراب"<sup>(4)</sup> ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟ وما دور التعليم فيه؟

لم يسلك الجابري سبيل الإستسلام مراهنًا على الدفاع عن الهوية بالمعنى الثقافي والفكري موكلًا هاته المهمة للدولة من جهة وللتعليم والمثقفين من جهة أخرى في أفق استراتيجي ينبغي تحقيق ما يسميه "الإستقلال التاريخي للذات العربية" قطريا وقوميا، وهو الهدف من مشروعه الإصلاحية برمته: يريد الجابري أن يكون المعلم مستقلا وكذا المتعلم والتعليم والذات العربية بوجه عام، فما معنى هذا الهدف؟

لا يعني هذا الهدف تشكيكا في الإستقلال السياسي للدولة العربية، كما أنه ليس دعوة للتفكيك والتفتيت، فالجابري مفكر وحدوي إذ الوحدة الوطنية والعربية بالنسبة له "مطلب تاريخي" أيضا فماذا يعني به إذن؟ إنه يحمل كل المعاني المقابلة للضياع والإستسلام والتبعية وهكذا فالإستقلال التاريخي للذات العربية يدل على تقوية الهوية وتعريضها وامتلأها بدل تحويلها إلى هوية هشّة ومختزقة بالكامل وهكذا يكتسب هذا الهدف الإستراتيجي كل حمولته الثقافية والتربوية والحضارية، فما دور الثقافة والتعليم في ذلك؟

<sup>1</sup> - محمد الجابري: المسألة الثقافية، ص 173.

<sup>2</sup> - محمد الجابري: المسألة الثقافية، م.س، ص 194.

<sup>3</sup> - محمد الجابري: مواقف عدد 70، م.س، ص 58 و64.

<sup>4</sup> - محمد الجابري: المسألة الثقافية، م.س، ص 223.

يجبنا الجابري بالتجديد من الداخل ثقافيا وبتحقيق مدرسة وطنية واحدة تعليميا وهما عمليتان متكاملتان قطريا وعربيا، الأولى تجعلنا نتفادى الإنغلاق والتغريب والثانية تجعلنا نتفادى مدارس "مستنسخة"<sup>(1)</sup> و"هجينة" بل إن الجابري سيطرح في نهاية الأمر شعار "استقلال التعليم"<sup>(2)</sup> "شبيه باستقلال القضاء" بمعنى أن يعطى له "كيانه المستقل"<sup>(3)</sup> من حيث أجهزته وتدريبه ومحاسبته، معتبرا أن الأصل الحقيقي لمشكل التعليم هو "القرارات التي تتخذ من خارج التعليم ذاته"، وهكذا أوكل الجابري للثقافة والتعليم مهمة تاريخية عظيمة لا يمكن أن ينوب عنهما فيها لا السياسيون ولا الاقتصاديون، مهمة تستلهم تجربة رائدة في الغرب الإسلامي تجسدت مع أبي الوليد بن رشد والذي جدد الفكر العربي الإسلامي من داخله وحقق استقلاله الثقافي الخاص به اتجاه الحضارة اليونانية.

ولكن هل الواقع الواقعي بإكراهاته وضغوطه وتضييقه لهامش الفعل سيسمح لنا بذلك؟ هل واقع العولمة – الذي لم تعد كلمة الاختراق كافية له، والذي أصبح معه "التعلم أشبه بالضرب بمطرقة على الرأس"<sup>(4)</sup> وحاملا في طياته مخاطر اختفائنا- سينصاع بوداعة لنبل شعارات مثل هاته؟ ألا يتعلق الأمر هاهنا أيضا "بحلم مزدوج"<sup>(5)</sup> تساؤلات مشروعة بالتأكيد ولكن لن يكون لها أن تنسينا أن الجابري كمثقف ظل دوما منسجما مع نفسه كمثقف حامل لمشروع ثقافي ومهمته "تكمين في النضال والتبشير من أجله"<sup>(6)</sup> فتلك كانت دعوته وتلك كانت تجربته حياته.

#### 4- التعليم ومشاكل أخرى:

لم يكتف الجابري في حديثه عن التعليم بقضايا الكبرى السالفة الذكر، بل تحدث أيضا عن علاقات التعليم بمؤسساته وبمجتمعه وبطرق تدبيره فقد تحدث مثلا عن مسألة تقسيم وزارة التعليم وهيكله المجلس الأعلى للتعليم ونظام الأكاديميات ونظام الإمتحانات وطرق التدريس وبطالة الخريجين والأمية وغيرها. وإذا كان الجابري قد تحدث عنها على سبيل الإشارات من جهة، فيمكننا من جهة أخرى أن نستخلص منها ثلاث مطالب: أولا **مطلب المراجعة** ويتمثل في الدعوة إلى إصلاح أجهزة التعليم ، فالجابري ليس "ضد الأجهزة" بل "ضد النتائج" وحال النتائج المقلقة يستدعي فعلا مراجعة نظام الأكاديميات والتقويم وغيرهما. ثانيا **مطلب الديمقراطية** وهي دعوة متكررة لديموقراطية الكفاءة والمصادقية والمسؤولية وثالثا **مطلب الأخلاقية** ويتمثل في الدعوة إلى كثير من المروءة والعمل الصالح كالثقة بالنفس والوعي والنقد الذاتي والنزاهة والتجديد، فالمعركة الأولى للإصلاح هي معركة ضد الذات. إنها إذن مطالب أقرب ما تكون إلى توجيهات منها إلى تقديم "وصفات جاهزة"، فالجابري فيما نرى ليس "مفتيا

<sup>1</sup> - محمد الجابري: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 4، بيروت - لبنان- ص 70.

<sup>2</sup> - محمد الجابري: مواقف عدد 70، ص 62.

<sup>3</sup> - محمد الجابري: ن.س، ص 63.

<sup>4</sup> - عبد الله ساعف: إصلاح نظام التربية والتعليم، المعرفة للجميع، منشورات رمسيس، أبريل- ماي 2001، ص 55-56.

<sup>5</sup> - محمد المصباحي: الجابري والحلم المزدوج بالعقلانية، م.س، ص 179-180.

<sup>6</sup> - محمد الجابري: المسألة الثقافية، م.س، ص 239.

للحلول" في تفاصيلها التقنية بقدر ما هو صاحب آراء وداعية للإصلاح ومفكر مجدد بروح عقلانية نقدية.

##### 5- ما الذي يمكن استخلاصه من مقارنة الجابري لسؤال التعليم؟

سؤالان اثنان افتتحنا بهما هذا العرض، كان الأول يتعلق بالموقع الذي تحدث من خلاله الجابري عن هذا الإشكال هل هو موقع المؤرخ أم السياسي أم المثقف أم الإيديولوجي؟ أما السؤال الثاني فكان يتعلق بطبيعة هذا الموقف هل ظل هو هو في ثباته أم طاله التحول؟ ويبدو واضحا من خلال ما تم

تقديمه أن الجابري قارب سؤال التعليم كمؤرخ وكسياسي ومثقف وكإيديولوجي وكمهني أيضا، لقد تحدث عن التعليم من خلال جميع هذه المواقع مما يجعله بالتالي مثقفا شموليا، فهو لم يركب فرس السياسة والثقافة ماسكا بلجام واحد كما يقول عن نفسه بل إنه ركب أيضا فرس الإيديولوجيا والتاريخ.

أما بالنسبة للسؤال الثاني، فإن متابعة نصوصه على مستوى لغتها ومفاهيمها وما تضمنته من مواقف تدل على أنه عاش مخاضا فكريا أدى إلى تحول في مقاربتة لمسألة التعليم: تحول من خطاب الممارسة الثورية والحل الوحيد والتغيير الجذري إلى خطاب الثقافة والنضال الديمقراطي والتجديد، تحول من الرهان على السياسة إلى الرهان على الثقافة، وهذا التحول هو ما تجسده المسافة بين كتاب رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية وكتاب أضواء على مشكل التعليم بالمغرب من جهة وبين حواراته اللاحقة من جهة أخرى، وهي مسافة ناجمة عن إنصات للذات والاستجابة لندائها القوي النابع من الأعماق ورصد لما عاشه العالم من تحولات عميقة.

نعم يمكننا أن نختلف في تقدير درجة هذا التحول وفي تقييمه، ولكن لا يمكننا حذفه أو إلغائه لأنه حاضر يطالعنا مثلما تطالعنا ثوابت من فكره القادم من مناخ الستينات والسبعينات.

في يوم ما من سنة 1975، كان الجابري يحاضر أمام ثلة من رجال التعليم فدعاهم إلى "التجديد والبدء بالذات... وليكونوا مصابيح وهاجة يخرق نورها جميع الحواجز وينساب من كل جهة لينير الدروب... دروب الحياة والمستقبل"<sup>(1)</sup>. رحم الله المفكر الجابري لقد عمل بما دعا إليه ودعا لما عمل به.

<sup>1</sup> - محمد الجابري: رؤية تقدمية...، م.س، ص 175.